

فتح عكا

(٦٩٠ هجرية - ١٢٩١ ميلادية)

للأستاذ أحمد رمزي بك



جاء في نهاية المقال القيم الذي كتبه الأستاذ محمود عزت عرفة بعدد الرسالة رقم ٦٩٣ أن سقوط عكا بيد المسلمين كان في عهد الملك الظاهر بيبرس ، والحقيقة أن الفتح تم في عهد الملك الشهيد الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون في سنة ٦٩٠ هجرية ١٢٩١ ميلادية ، وقد تم على يده فتح صور وميدا وبيروت وغيرها من مدن الساحل فأعادها إلى الاسلام ، وأطلق على هذه الحروب اسم الفتوحات الأشرفية ، واستمر المسلمون قرونا بالساحل والجليل يؤرخون بهذا الفتح فيقولون تم هذا في أيام الفتح الأشرفي أو بعده أو قبله . وفي بيروت حتى مشهور اسمه حتى الأشرفية نسبة إلى ملك مصر الشهيد الأشرف خليل بن قلاوون ، وقد ذكر جيبون المؤرخ الانجليزي نهاية هذه الحروب وهذا الفتح فقال : « ساد مسكون عزن على امتداد ذلك الساحل الذي ظلّ أزماناً طويلة ميداناً تسمع فيه قعقة سيوف نضال العالم » .

وهذا الفتح من أهم الفتوحات الاسلامية التي من الله بها على مصر الاسلامية في أزهى عصورها بل جعل منها دولة مهيبة الجانب يخشاها العدو وبرهبها الصديق ، وبقيت موضع رعب أوروبا حتى موقعة امبابه أيام نابليون .

ويقول ابن القرات في كتابه إن سلطان مصر لما عزم على التوجه إلى حصار عكا أمر يجمع العلماء والقضاة والأعيان والقراء بترية والده الملك المنصور وهي لا تزال بالقاهرة إلى اليوم وتمتد تحفة من تحف الفن الاسلامي المربي ومفخرة من مفاخر ذلك العصر . أرجو أن تذهب لرؤيتها وإشباع النظر بها .

قال إنهم اجتمعوا في ليلة الجمعة الثامن والعشرين من صفر

من هذه السنة ، وباتوا بالقبّة المنصورية يقرأون القرآن الكريم ، وحضر الملك الأشرف إلى التربة في بكرة نهار الجمعة وتصدق بالهبات وفرّق على القراء والفقراء أموالاً كثيرة غير الكُسى والمدايا التي وزعها على أهل المدارس والرباطات والزوايا . كأنه كان يودع والده حيناً عزم على التوجه للجهاد .

وفي الثامن من ربيع الأول نزل السلطان من القلعة وتوجه بالمساكر المنصورة إلى دمشق وسار منها حتى نزل على عكا وحاصرها وسدّ الطرق عليها ، وكان الفرنجة لما بلغهم سير الجيوش الاسلامية العصرية وعزم السلطان على محاصرة مدينتهم في قلق زائد ، ولذلك كتبوا إلى ملوكهم وسألوهم النجدة . فاجتمع لديهم جموع من مختلف مللهم وعملهم . ويقول السير وليم موير « إن جزيرة قبرص بعثت بنجدة إليهم » ، ولكن الذي يظهر من كلام المؤرخين المعاصرين أن أكثر النجدة أتت إليهم من الأرمن المقيمين بالشرق .

وليس في عزمي شرح المارك التي ظهر بها المسلمون على الصليبيين في آخر عهدهم ، ولا ذكر القتال يوماً بعد يوم وتتبع الشهداء والقواد وأهل الرياسة من جند مصر والشام فتلك ملحمة من ملاحم الاسلام أجمع لها المواد ليوم قريب بإذن الله ؛ كما أنه ليس في العزم أن أكتب عن الملك الشهيد الأشرف خليل وحياته ، ولذلك غرّ على ذلك مرأً ، ونكتفي بشهادة بعض

المعاصرين نقلاً عن صاحب النجوم الزاهرة .

قال النويري : « كان ملكاً مهيّباً شجاعاً مقداماً جسوراً جواداً كريماً » .

وقال الذهبي : « لو طالت أيامه لأخذ العراق وغيرها . فانه

كان بطلاً شجاعاً مقداماً مهيّباً على الهمة » .

وقال صاحب النجوم « وجمهور الناس على أنه أشجع ملوك الترك قديماً وحديثاً بلا مدافعة ، ثم من بعده الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق ، وشهرتهما في ذلك تقني عن الاطئاب في ذكرهما » .

واقعد كان الأمير بيبرس المنصوري شاهد عيان لمركة عكا ،

ولذلك اظن في وصفها ووضع ذلك في كتابه « زبدة الفكرة »
وقال إن هذا الفتح العظيم جاء في يوم الجمعة المبارك السابع عشر
من جمادى الآخرة من سنة ٦٩٠ ، وإن عكا انتزعت من يد
المسلمين في عهد صلاح الدين سنة ٥٨٧ ، وبقيت بيد الصليبيين
١٠٣٣ سنة ، وختم كنهه بقوله : « لله الحمد على انتصار المسلمين
واستظهار الموحدين بهمة أولى المهتم العملية ، والمزمات المنصورة
النصورية (نسبة إلى المنصور قلاوون) الأشرافية (نسبة إلى
الأشرف خليل) ، ولا شك في أن هذه الطائفة أربت على الأول
ونالت بها الدولة من النصرة والنصرة ما لم تنله الدول » .

ويصف السير وليم موير في كتابه « تاريخ دولة المماليك »
سقوط آخر معقل للصليبيين بالشرق والحقد بأكل قابه فهو
لا يترك نقيصة إلا الصقها بالمسلمين وملكهم فيقول : « حتى
الفرسان الذين وعدوا بأن يفسح لهم طريق النجاة أمر السلطان
بقطع رقابهم جميعاً بدون رحمة ، وأن مالا فاه أهل بيروت من
إهدار دماهم وقتلهم صبراً لا يقل قضاة عما وقع في عكا » .
يسوق كل هذا ولا يبين لنا أسباب هذا القدر من الجائنين .

ولقد احتفلت العاصمتان مصر ودمشق بهذا الفتح الأشراف
العظيم ، ولما دخل الأشرف مدينة دمشق زينت له الشوارع
وأقيمت القباب وأقواس النصر ، ودخل وبين يديه الأسرى
من الفرنج تحت الخيول وفي أرجلهم القيود وأعلامهم منكسة ،
ولما دخل مصر شق المدينة من باب النصر إلى باب زويلة ،
وأقيمت له الاحتفالات الشائقة .

ولما كثرت الأقاويل والروايات عن هذا الفتح ، وصرح
كثيرون أنهم تنبأوا به قبل وقوعه ، وقال يبرس النصوري :
ولما أتاح الله هذا الفتح وسهله وأباحه وعجّله قرظه الشعراء ،
وذكره الفضلاء .

وقد اطلعت في كتاب ابن القرات على الكثير من القصائد
التي قيلت أجبني منها بعض الأبيات أنقلها لقراء « الرسالة » .
فن قصيدة الشيخ بدر الدين محمد بن أحمد بن عمر المنجي
التاجر الفهم بالقاهرة :

بلغت في الملك أقصى غاية الأمل
وكت شاو ملوك الأعصر الأول

ونلت بالحول دون الناس منفرداً
ما لم تنله ملوك الأرض بالجيل
وهي طويلة فيها المرية السهلة وبمض الألفاظ العامية ومن
الغريب أن يأتي بعد خمسة قرون من ينحرو نحوها ويقول :

ماذا أقول وكيف القول في ملك
قد فاق كل ملوك الأعصر الأول
وقال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر أظنه صاحب سيرة
الملك الظاهر :

يا بني الأصغر قد حل بكم نعمة الله التي لا تنفصل
قد نزل الأشرف في ساحلكم فأبشروا منه بصنع متصل
وكتب القاضي شهاب الدين أبو التناء محمود الحلبي كاتب
الإنشاء قصيدة أطول من كل هذا نحا فيها نحو صاحب قصيدة
« السيف أصدق أنباء من الكتب » ، وقلّد عباراته وتشبيهاه
جاء فيها :

بشراك يا ملك الدنيا لقد شرفت
بك الممالك واستلمت على الرب
فأنهض إلى الأرض فالدنيا بأجمعها
مدت إليك نواصيها بلا نصب
أدركت ثأر صلاح الدين . إذ غضبت

منه لـ طـواه الله في اللقب
إن عكا مدينة عزيزة على القلب بذكرياتها ، أقلب صفحات
الفتح الأشراف فقرأها بجانب صفحات من عاصر صلاح الدين
وعاين قلقه على جنوده المحاصرين بقلعتها . أمضيت أياماً أسجل
من سيرته تنقلاته في التلؤلؤ المقلبة لسهول عكا ، وأتابع تلك
النفس العظيمة ، ولذلك كنت كلما مررت بهذه الجهات يخفق
قلبي وتهتز نفسي شوقاً إلى أرواح الشهداء الذين ماتوا على تلك
البقعة التي تجمع مع الطهارة الخلود في نفس كل مسلم .

أحمد رمزي